



من سير
أعلام الشهداء

22

أبو الغادية

[رحمه الله]

[أبو الغادية]

جميل الخلق والحلقة، طيب الصُحبة والعشرة، ذكيٌّ زكيٌّ نحسُّبه، متواضعٌ في غير ذلةٍ، لينٌ إلا في دينه، صلبٌ إلا مع إخوانه، خدومٌ من غير أنفه، كان صاحبٌ سرٍّ أسد الرافدين الأمين، وأول أصحابه المقدمين الأقدمين " تقبلهما الله وغفر لهما " .

من بلاد الشام من سوريا الحبيبة، طيبُ أسنانٍ ماهر، هاجر إلى الله إبان فترة الدولة الإسلامية في أفغانستان، وهناك تعلَّم أول دروس العسكرية، وتفجَّرت في نفسه ينباعُ العبقريَّة الإدارية، فقد كان يعيش النظام والترتيب، يكره العشوائية والهمجية، يؤلِّمه كلُّ شيءٍ في غير موضعه ولو كان كأس ماء، وكان ذلك منبثق من طبيعة عمله كطبيب، لحق بركب أبي مصعب " تقبله الله وغفر له " مبكراً واتفقا على إحياء الجهاد في بلاد الشام، وبدأ معه يرتب أول لبنات البناء فكان معسكر هيرات، والتي ما تركها إلا بعد الهجوم الرافضي عليها مستخدمين كلهم " اسماعيل خان " وذلك إبان الهجمة التترية الأمريكية على الإمارة الإسلامية الحبيبة.

وفي آخر لقطات حياته في تلك المدينة كنت أراه أمام عيني " أبا الغادية " مُحاصراً مع مجموعةٍ من رفاقه في بيتٍ بقلب هيرات بالقرب من الجامع الكبير، وكأني الآن أسمع الحبيب وهو يتصل بجهازه اللا سلكي ويُخبر أميره أبا مصعب أن مجموعةً من المرتزقة أحاطوا بمنزلهم وطلبوا منهم الاستسلام، فيجيبه القائد لا تفعل وسوف آتي لفك الحصار مع الإخوة الطلبة.

وبدأ الحصار يشتد ويتضايقُ الإخوة أشدَّ الضيق، وينشرُ أبو الغادية إخوانه في مواقع قتالية من السطح وبالقرب من النوافذ، وفجأة تنهال عليهم الإطلاقات والرَّمانات اليدوية من كل مكانٍ ويستبسل الإخوة في الدفاع والقتال، وبعد يأسٍ من عدوِّ

جبان يأتي الإخوة من الخارج " الذين أرسلهم الشيخ أبو مصعب " فيفكّوا الحصار وينطلق الجميع سالمين آمين.

ثم يتخذ الطالبان قرار مغادرة المدينة، فيستجيب أبو مصعب لقرار أولي الأمر ويغادر المدينة الى قندهار.

المهم، غادر أبو الغادية الإمارة كجّل من غادرها بعد إصرار أولي الأمر فيها بتقليل العدد إلى أقصى حدّ ممكن وانتقل إلى موضع رأسه إلى بلاد الشام، وهناك بدأت مرحلة مهمة وخطيرة من مراحل الشاب الهادي الوسيم.

وذلك بعدما ودّع " سابقاً " عيادته والتي كان يعالج فيها الناس مجّاناً حتى لا يذهب أهل قريته إلى طبيبٍ نصرانيّ كان يأخذ أجراً زهيداً جداً طمّعاً منه في تنصيرهم.

بالشام بدأ يضع لمسات التنظيم العمليّة، فشارك مشاركة فعّالة في كلّ مراحلها، وفجأة ظهر اسمه وصورته إلى العالم بعد اتهامه بالضلّوع في محاولة تدمير مقرّ الاستخبارات الأردنيّة الصهيونية، وحُكِمَ عليه بالإعدام غيابياً، لكنّ الرّجل ما جلس في غرفة مُصمّمة وأحاط نفسه بهالة من التّكتيم والحراسة، على الرّغم من اشتهاه وانتشار صورته، بل استمرّ في العمل وبلا كلّ، فقدّ بتكليف من الشيخ أبي مصعب تنظيم بلاد الرافدين بأحد البلدان، وأخذ الرّجل يحوطه ترتيباً وتنظيماً حتى اشتدّ عودُهُ وقوي أمرُهُ وأصبح رافداً مهماً من روافد جهاد العراق، ولما ضيق عليه انتقل الى العراق وبالتّحديد الى الفلوجة، حيث حضر إليها قبيل اقتحامها بشهر تقريباً، ففي إحدى أيّام العزّ كنتُ في زيارة إلى ناحية الشّهداء فاعترضني شابٌ وسيمٌ ممتلئ الجسم أبيض البشرة، أسود الشعر ناعم، ببسمة ملئ عيونه، وفرحة بادية على وجهه، قائلاً لي: خانتي كالعادة، فقلت: وجهك ليس غريباً عليّ لكن اسمك ما حضرني، ولا حتى زمان اللقاء.



قال: يا رجل كنتُ آتيكم باستمرارٍ في مضافة الجماعة بكابل، فتذكرته واحتضنته وجلستُ معه نتذكرُ أيامنا الخوالي، ونعيش أيام عزّ الإمارة ولو لبضع دقائق، ثم انصرفتُ لسيلي، وبعد ذلك أسند إليه القائد أبو مصعب " رحمه الله " إمرةً شؤون المهاجرين بالفلوجة. وكعادته بدأ يُرتّب شؤون الإخوة أحسنَ ما يكون، فأحدث ولأوّل مرّة ديواناً للمهاجرين ورقماً سرّياً لكلّ مهاجر وأعطاه له، على أن يسجل اسمه وعنوانه وأهم ما يمكن عنه في ملفٍ سرّيٍّ جداً في مكانٍ سرّيٍّ.

فعملَ إحصاءً دقيقاً لعدد المهاجرين لكل كتيبة، وتاريخ دخولهم، وأماكن تواجدهم، وأمرائهم، وغير ذلك من الدواوين، فأجاد رحمه الله أيّما إجادة.

ثم بدأت رُحاً الحرب أعني حرب الفلوجة الثانية، وبدأت تزحف فيرى دخانها ويُسمع أزيزها. واتفقنا كما أسلفتُ على أن يكون مقرّ قيادة الأزمة في القلبِ أمام جامع الفردوس.

وهنا أحبّ أن أقفَ وقفةً عسكريّةً مهمّةً، لماذا مقرّ القيادة في القلبِ وليس في المقدمة؟، حيثُ كنْتُ منذ دقائق من كتابة هذه الأسطر في نقاشٍ مع بعض الإخوة بشأنِ هذا الموضوع، وأرى من الفائدة أن أنقلَ وجهة نظري إلى أحبّتي وإخواني، اعلموا حفظكم الله أنّه من الخطورة أيّها الإخوة أن يكون قائد المعركة في المقدمة، وخاصّةً إذا كانت المعركة مُتعدّدة الجوانب والأجنحة والفصائل، فلقد جربتُ ذلك بنفسِي ففي مرّة من مرّات هجوم العدو، حيثُ تقدمتُ إلى الأمام وصارَ القصِفُ خلفي بحيثُ لا أستطيعُ الرّجوع، فأصبحتُ لا أرى إلا ذلك الحيز الذي أنا فيه من الجبهة، ولا أستطيعُ متابعة شيءٍ سواه، وانقلب الأمرُ معي إلى جنديٍّ عاديٍّ وتحت العادي، إذ في الإخوة من هو أحسنُ وأشجعُ مني.



بينما ثبتَ إليّ بالتَّجربةِ ما كنتُ أقرُّهُ في القَدَمِ أنَّ القائدَ لا بُدَّ أن يكونَ في القلبِ أو في المؤخرةِ في مكانٍ يُشرفُ على المعركةِ.

المهمُّ أن يكونَ في مكانٍ يرى فيه جميعَ جوانبِ الجبهةِ ومحاورها فيستطيع أن يُقدِّمَ فصيلاً إلى محورٍ مَسَّهُ الضُّعْفُ أو يستجيبَ لنداءِ نقصِ العتادِ في محورٍ آخر، أو يرى ثغرةً حدثت في نقطةٍ فيقدِّم من يسدّها أو يسحبُ من قطاعٍ جزءاً من قوَّة لا يحتاجها أو يهتمُّ بأمورٍ أخرى فيراها رأيَ العينِ من الجرحى والطعام وغيره. وهذا هو سرُّ بناء الصَّحابة لعريشِ النَّبي صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غزوة بدر، حيث كان في موضعٍ يتحكَّم ويُشرفُ على المعركة فيقدِّم حمزةً وعليّاً ويؤخِّرُ غيرهم، ويسدُّ الميمنة ويُجبرُ الميسرة وغير ذلك من مهام القائد في المعركة.

المهمُّ أنَّ الشَّهيد قد أخذَ مكانه في حيِّ نزالٍ أمام جامع الفردوس، وفي هذا المكان تجلَّت شجاعةُ الأمير الشَّهيد، حيثُ كان يتقدَّم إلى المقدمة ويأخذُ يحفِّزُ الإخوة ويرتّب شئونهم ويقوِّي من عزميتهم، وما زالَ في ذلك على النَّحو المعروف حتَّى تمَّ اقتحام نزالٍ وفي تلك الليلة المظلمة كنتُ جالساً وإياه مع أبي جعفر وعدداً آخر من الإخوة ثم انحزت وإياه الى مكانٍ آخر، وأصبح الصُّباحُ على معارك ضارية تكبَّد فيها العدوُّ الكثيرَ والكثير.

وما زلتُ أتقلَّبُ مع أخي وحببي من مكانٍ إلى آخر حتَّى آخر ساعةٍ من ساعاتِ الفلوجة، فما افرقنا قطَّ في تلك الأزمة، وهنا أحبُّ أن أُسجِّلَ بحصرِ الأشياء المهمة التي حَدَثتْ معه ومعنا والتي كانت في بعض الأحيان ظريفةً ومضحكةً، ومن ذلك أنَّنا لما اشتدَّ الخطبُ وأحاطَ بنا العدوُّ من كل مكانٍ اجتمعنا ليلاً في بيتٍ من بيوت الجهاد، وفي إحدى غرف هذا البيت الواقعة في مؤخرة المنزل يُضيءُ مصباح "الكيروسين" والمجاهدون حوله يقولون يا الله.

و بدا لي حينها أن أقترح اقتراحاً، فقلت: إخواني، أرى والله أعلم، حالنا أشدّ ضيقاً وضنكاً من أصحاب الصخرة الذين دَعَوْا بصالح أعمالهم، فهيّا ندعو بصالح أعمالنا لعلّ الله أن يُفرّج عَنّا، وقلت: كأني يا أخواني أفهم من الحديث أن يكون الدّعاء علانية، أي أن يجهَرَ كلّ واحدٍ مِنّا بأرجى أعماله عند الله، وذكرتُ أن المجالسَ بالأمانات، وتعاهدنا أن ينسى كلّ واحدٍ مِنّا ما قاله أخوه أو يتناساه بعد الدّعاء.

وبالفعل بدأ الإخوة يجتهدون في التّقرب إلى الله بأرجى أعمالهم إلا أخوين اثنين استحيا أن يذكرّا شيئاً. وتمرّ الأيام والليالي، وإذا بجميع من دعى في تلك الليلة المباركة يخرج سالماً آمناً من أحداث الفلّوجة، والعجب العجيب أن الأخوين سالفا الذكر كُتِبَ لهما الشّهادة ولم يخرججا، فالحمد لله على شهادة الإخوة وعلى سلامة الباقيين. وكان مما دعا به حبيبي عبدالهادي " أبو الغادية " أمراً يتعلق بموضوع خدمة الإخوان ولولا ما تعاهدنا عليه لذكرته الآن فالعذر منكم يا أحبابي.

و في هذه الأزمة تَنَقَّلْتُ والرّجل من بيتٍ إلى آخر واختبئنا من مكان لمكان حتى اضطررنا ظروف الحرب أن جلسنا في جحرٍ صغير، والذي صارَ بصحبة عبد الهادي "أبي الغادية" قصراً كبيراً، فكانَ يخدمُنا خدمةً عجيبةً إلا أنّه كان مقتنعاً أنّه طبّاخٌ وليس بذلك. ففي بعضِ الأيامِ صارتُ لنا فسحة الطّهي، فطهى لنا أرزاً تبينَ عند الأكل أنه وصلته النّار من الوسط ولم يكتمل طبخُهُ من الجوانب، فأولّوها أن النّار كانت صغيرةً تركّزت في الوسط، وفي المرّة الثانية جاء الأرز قد اكتمل طبخه من الوسط وغير جيّد من الجوانب، فادّعى أن النّار كانت كبيرةً فلم تصل إلى الوسط. وفي المرّة الأخيرة كانت المفاجئة، حبة أرز مطبوخة وأخرى لم تكتمل، فادّعى أنّه خلط نوعين من الأرز، المهمّ لا يمكن أن تأكلَ أرزاً مطبوخاً بصورةٍ جيّدة أبداً



والعذر دائماً موجود، فأخبرته أنني سأشهرُ به في العالمين، وها أنذا أوفٍ ما قلتُ وأعلم أنه سيسامحني لأنه حبيبي.

كان لوجود عبد الهادي في الأحداثِ دوراً مهماً، حيث كان الطَّبيبُ الوحيدُ معنا في تلك الأحداث، أعني في حي نزال، فكان على الرغم من كونه صيدلياً، إلا أنه كان يُضَمَّدُ الجراحَ ويعطي العلاجَ ويقومُ بعملٍ جبارٍ في هذا الأمر، غير أنه كان حريصاً ألا يعلم أحدٌ أنه طبيب، فكان رحمه الله يجوبُ المنازلَ بحثاً عن بقايا دواء أو مطهر أو عسل أو أي شيء يمكن أن يُفيد في تطيب الإخوة والذين نَزَفَ أحدهم حتى الموت ولمدة ساعتين كاملتين، وأذكرُ كل هذا ليعلم المسلمون حاجة الجهاد للأطباء وكافة التخصصات الأخرى.

خرج أبو الغادية من الفلوجة الثانية مُحمّلاً بالهموم وبالأفكار وأخذَ موضعه المعتاد بجانب صاحبه أبي مصعب الزرقاوي فكان رسوله إلى الناس وموضع سرّه الأمين، وكالمعتاد، وفي إحدى المرات أرسله الشيخ إلى الحدود، أعني حدود الجزيرة (السعودية) لاستقبال الشيخ "عبد الله الرشود" مع الشيخ أبي الليث النجدي رحمه الله، وفي تلك الليلة جاءت مدهمة إلى تلك المنطقة، واستعدّ لها الإخوة ثم بدأوا بالاشتباك مع العدو، وبعد فترة وجيزة قصفَ العدو الجبان البيت بصاروخٍ موجهٍ من طائرةٍ حربيةٍ ليَجْعَلَ البيتَ رُكاماً ويُنِي للثلاثة قصوراً في جنانٍ عَدَنٍ عندَ مليكٍ مقتدر.

هذا وأحبّ أن أنوّه أنني أعلم جيداً أنني لم أقف على شيءٍ من سيرة الرّجل إلا مواقف بسيطة ما زالت بالذاكرة، لكن ما لا يُدركُ جُلّه لا يُتركُ كُله، والله يعفو عن خطأي وتقصيري، أسألُ الله أن يرَحِمَنَا برحمته التي وسعت كل شيء، اللهم آمين.

كما وأُحِبُّ أَنْ أُرَوِّحَ عَنْ نَفْسِي وَإِخْوَانِي بِنَكْتَةٍ بَسِيطَةٍ حَكَاهَا لِي الدُّكْتُور أَبُو الغَادِيَةِ "عبدالهادي" حَدَّثَتْ لَهُ مَعَ الشَّيْخِ الدُّكْتُورِ أَيْمَنِ الظُّوَاهِرِيِّ إِبَانِ وَجُودِهِ فِي أَفْغَانِسْتَانِ، مَفَادَهَا: أَنَّ الْأَخَ (ذُو الْهَمَّةِ) أَوْ (اللُّوْح) كَمَا كَانَ يُدْعَى مِنْ ضَخَامَةِ جِسْمِهِ وَسُرْعَةِ غَضَبِهِ وَقُوَّةِ بَأْسِهِ لَمَنْ يَبْطِشُ بِهِ، حَتَّى أَنَّهُ ضَرَبَ عَمُودًا لِلْإِنَارَةِ فَأَوْقَعَهُ. الْمَهْمُ أَنَّ ذُو الْهَمَّةِ أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلِيَّةً بِوَاسِيرٍ، وَكَانَ الَّذِي سَيَتَوَلَّى عَمَلَهَا لَهُ الدُّكْتُورُ أَيْمَنُ "حَفَظَهُ اللَّهُ"، فَجَاءَ أَبُو الْغَادِيَةِ مَعَ ذِي الْهَمَّةِ، وَقَالَ لِلدُّكْتُورِ: أَسَاعِدْكَ يَا دَكْتُورُ فِي الْعَمَلِيَّةِ (لَعْدَمِ وَجُودِ مُسَاعِدٍ)، فَقَالَ لَهُ الدُّكْتُورُ أَيْمَنُ: وَحَضَرْتُكَ مَاذَا تَعْمَلُ؟ قَالَ: طَيِّبٌ. قَالَ لَهُ: أَيُّ تَخْصِصٍ؟ قَالَ: أَسْنَانُ، قَالَ لَهُ الدُّكْتُورُ أَيْمَنُ، "إِحْنَا شَغَلْتُنَا النَّاحِيَةَ الثَّانِيَةَ خَالِصٌ".

وَفِي الْخَتَامِ: هَذِهِ قَصِيدَةٌ فِي رِثَاءِ أَبِي الْغَادِيَةِ "رَحِمَهُ اللَّهُ"، كَتَبَهَا صَدِيقُهُ وَرَفِيقَ دَرْبِهِ وَأَحَدَ أَحِبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَهُوَ الْأَخُ أَبُو أَحْمَدَ:

فَوَإِذَاكَ مَكْلُومٌ وَصُبْحُكَ غِيَهْبٌ
وَحُزْنُكَ مِنْ بَحْرِ النَّوَائِبِ يَشْرَبُ
مُصَابُكَ يَا قَلْبِي عَظِيمٌ فَهَلْ
سَيُسْعِفُهُ دَمْعٌ مِنَ الشَّعْرِ يُسْلَبُ
وِغَايَةِ آلَامٍ وَجَفْنٍ مَسْهَدُ
نُمَسِّكَ بِالْأَمَالِ وَهِيَ بَعِيدَةٌ
وَتُدْرِكُنَا آجَالُنَا وَهِيَ أَقْرَبُ
أَبَا خَالِدٍ هَبْ لِي بَيَانًا فَإِنِّي
لِفَقْدِكَ مَوْتُورُ الْقَرِيحَةِ مُتَعَبُ

أَعْرَ قَلْبِيَ الْخُزُونُ بَعْضَ فَصَاحَةٍ فَقَدْ كُنْتَ فِي كُلِّ الْمِيَادِينِ تَخْطُبُ
وَرَشَّاشُكَ الْهَدَّارَ أَبْلَغُ خُطْبَةٍ تُرْتَلِّهَا يَمْنَاكَ زَهْوًا وَتَسْهَبُ
أَتَتْكَ عَلَوُجُ الرُّومِ تَنْفُثُ سَمِّهَا لَهَا مِنْ ثَعَابَيْنِ الرُّوَافِضِ تَسْرِبُ
وَقَدْ كَانَ صَدَّ الرُّومِ سَهْلًا فَمَنْ لَنَا بِجُرْذَانٍ لَيْلٍ وَهِيَ بِالصَّحْبِ ثَعْلَبُ
إِذَا صَدَقْتَ ابْدَتْكَ مُحَضَّ خِيَانَةٍ فَكَيْفَ وَفِي كُلِّ الْخَافِلِ تَكْذِبُ
قَضَى اللَّهُ أَمْرًا مَالَهُ غَيْرُ عَزْمَةٍ يَفْجَرُهَا لَيْثٌ سَدِيدٌ مُجَرَّبُ
قَذَفْتُهُمْ نَارًا فَكَانُوا وَقُودَهَا وَصُبَّ عَلَيْهِمْ مِنْ حَتُوفِكَ أَشْهَبُ
كَأَنَّكَ فِي كَفِّ الْمَيْمَةِ سَيْفَهَا تَطْيِحُ رُؤُوسَ الْكُفْرِ أَيَّانَ تَضْرِبُ
أَبَا خَالِدٍ هَذَا الْبَطُولَةَ تَزْدَهِي عَلَى ذِكْرِكَ الْمَيْمُونُ تَيْهًا وَتَطْرِبُ
بَعَثْتَ بِرُوحِ الصَّدْقِ صَحْبَ مُحَمَّدٍ فَحَمْرَةَ وَالْفَارُوقِ حَيٍّ وَمُصْعَبُ
سَتَشْهَدُ هِيرَاتُ بَائِكَ لَيْثَهَا وَتَشْهَدُ بَغْدَادُ بِذَاكَ وَتَكْتَبُ
وَأَنَّكَ فِي سَاحِ الْبَطُولَاتِ مَاجِدٌ وَأَنَّكَ فِي لَيْلِ الْكُرْهَةِ كَوَكَبُ
وَأَنَّكَ فِي تِيهِ الشَّدَائِدِ فَرَقْدٌ وَأَنَّكَ فِي جَدْبِ السَّبَاسِبِ صَيِّبُ

ستذكرك الأنبار مُسعرٌ حربها إذا انسلّ من صفّ الخميس مُذنبُ
ستبكيك شام العزّ نسرًا محلّقاً جناحاك إيمانٌ وعزمُك مخلّبُ
أبا خالد عذراً فمالي سوى الذي كتبتَ وهل بحر المآثر يُكتبُ
رثاؤك فرضٌ ما قضينا أقلّله وهل يجبر الأركان شعر مهذبُ

وكتبه:

أبو اسماعيل المهاجر

